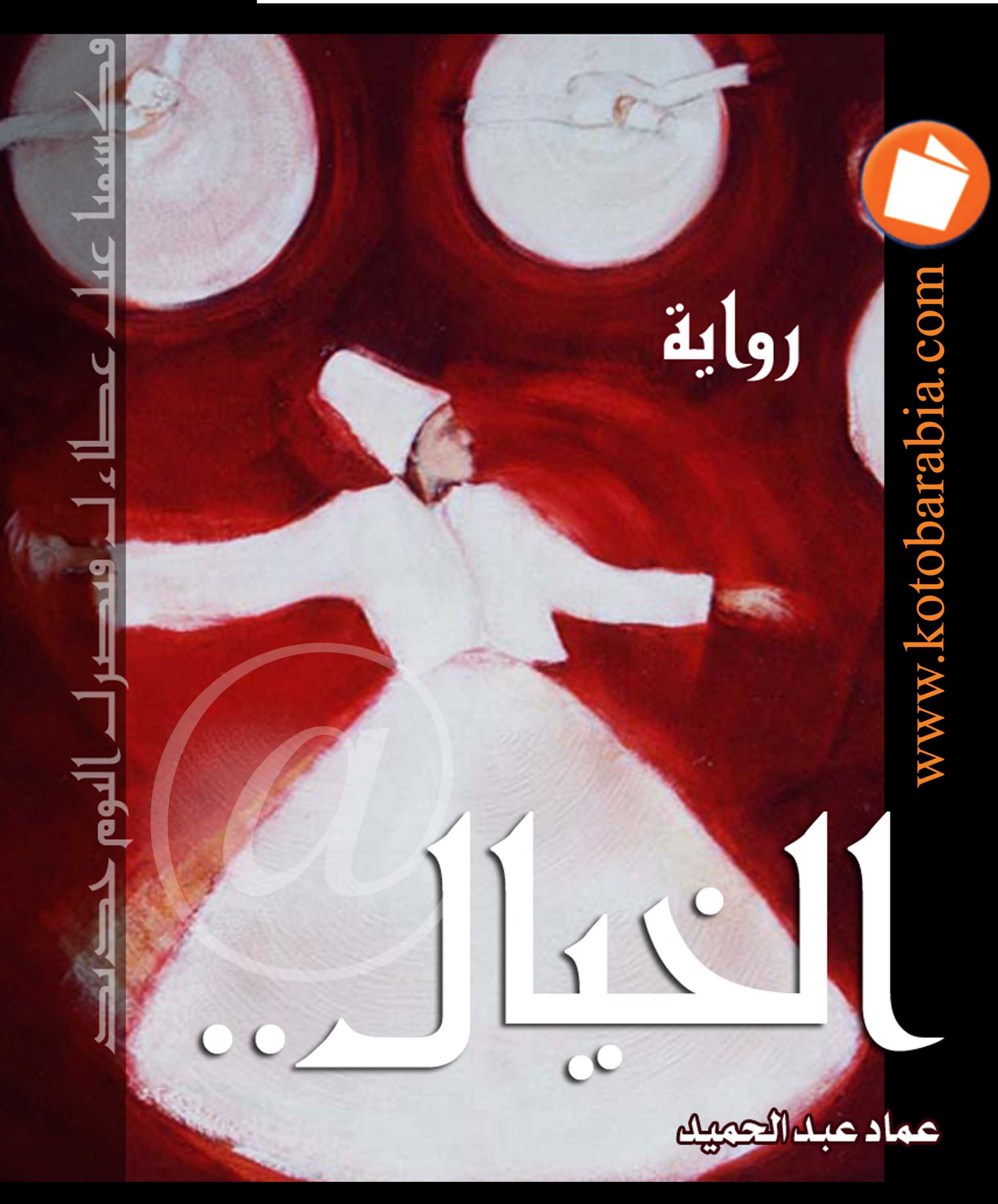


رواية
الخيال..
عماد عبد الحميد
www.kotobarabia.com

رواية



عماد عبد ا ميد

جائزة أفضل رواية

المسابقة القومية الأولى للأدباء الشبان ١٩٩٦

وزارة الثقافة

تجسد الروح للأبصار تخييل... فلا تقف فيه أن الأمر تضليل

محيي الدين بن عربي

(الفتوحات المكية)

" لا تذهب إلى الحجرة الأخيرة، و إلا تحولت مثل محمد ناظم.. إلى خيال "

كان هذا هو التحذير الذي دأبت العجوز على توجيهه لي في كل مرة، وأنا أمر أمام بابها المفتوح محاولاً الوصول إلى نهاية الدهليز المعتم الذي تحتل حجرتها مقدمته. ولم تغفل تلك السيدة ولا لمرة واحدة عن تحذيري كلما رأتني أهم بأن أتجاوز بابها إلى الداخل. وبالرغم من لهجتها التي كانت تبدو غريبة على مسامعي في حينها، إلا أن التحذير كان مفهوماً بأي حال، مفهوم بالدرجة التي كانت تخيفيني وتجبرني في كل مرة إلى التراجع قبل أن أصل إلى الحجرة الأخيرة.

فقد كنت أخشى أن أتحول أنا الآخر.......... إلى خيال!!

الفهرس

الخيـــــال...

[١]

بمرور الأيام .. تحول هذا المشهد الغائم ليصبح جزءاً من ميراث طفولتي، يبـرز بوضوح نسبي من بين صور كثيرة مبهمة تهيم في فلك الذاكرة، تخـتلط فيهـا الحقيقـة بالخيال بدون أن اعرف لذلك حدود فاصلة.

من يكون محمد ناظم؟ وكيف تحول إلى خيال؟؟

وبالرغم من التكشفات العديدة التي توالت مع السنين لتلقي بعض الأضـواء علـى تلك الواقعة، إلا أنها لم تكن كافية لتجلي حقيقة الأمر. وبقى هناك رجل واحد فقط هو من يعرف الحقيقة كاملة.. لم يكن هذا الرجل سوى أبى، ولكنه كان شحيحاً للغاية لا يتكلم.

لم ينصرم وقت طويل حتى عرفت أن ذلك الدهليز المظلم يقع ببدروم قصر " ناظم باشا إسماعيل" الموظف بالخاصة الخديوية في عهد السلطان "عباس حلمي". وكان - هذا القصر - يحتل موقعاً فريدا لا مثيل له، يقع عند التقـاء النيلـين بجزيـرة الروضـة، تحاصره المياه من كل جهة ويظهر النيل من شرفاته الدائرية كبساط ممتد من أسفلة وهو يواصل رحلته إلى الشمال. و قد ظل هذا القصر قائماً في مكانـة - بطـرازه العتيـق- كأسطورة إلى أن غمرته مياه فيضان مرتفع للنيل، ولم يعد له أثرا الآن.

كان أبي يعمل بهذا القصر في خدمة ناظم باشا كمعلم للغة العربية لأبنائـه. وكـان كثيرا ما يصطحبني معه عند ذهابه إلى هناك وأنا لم أزل بعد صغيراً. لا أكاد أتـذكر أي شيء عن المكان، كل ما علق بذاكرتي هو تلك الرحلة النيلية التي كان يتعـين علينـا أن نقطعها بالقارب حتى نصل إلى هناك. و لم تكن العجوز - محور تلك الرؤيـة الغائمـة- سوى مربية أولاده التركية التي كانت تقوم على رعايتهم و تأديبهم كعادة الأسر الراقيـة في تلك الفترة. أما "محمد ناظم" الذي كانت تحذرني من أن ألقى مصيره إذا ما جـرؤت على الاقتراب من الحجرة الأخيرة، فقد كان الابن الأكبر لناظم باشا، وقـد اختفـى فـي ظروف غامضة بعد عودته من "باريس " بفترة قصيرة. ولم تمض شهور قليلـة علـى اختفائه حتى ترك أبي العمل بالقصر، وبعدها بسنوات قليلة لا تتجاوز الثلاث استقال من عمله الرسمي بنظارة المعارف العمومية و اتخذ لنفسه ركناً منعزلاً بمسـجد "شـيخون " المجاور لمنزلنا و انقطع تماما للعبادة، فلم يعد يغادره الا نادراً.

وخلال سنوات الطفولة تكشفت لي المزيد من الحقائق التي ترتبط بتلك الرؤية، فقد عرفت ايضاً سر ذلك الصندوق الخشبي الكبير ذو اللون الداكن و الذي يرتفع غطاؤه فوقه كالقبة، ويحتفظ به أبى مغلقاً في حجرته. لقد كان يضم بعض المتعلقات الشخصـية التـي

تخص محمد ناظم، وكان أبي حريص عليها كل الحرص فلم أره لسنوات طويلة مفتوحاً و لا لمرة واحدة، بل ظل دائما كما هو منزوياً بأحد أركان الحجرة محكم الغلاق على ما قـد حوى.

أما آخر ما تكشف لي من حقائق ترتبط بتلك الواقعة فقد جاء عن طريق المصادفة، حيث عرفت أن ممثلة السينما التي تدعى "هدى خاطر " و التي اكتسبت شـهرة واسـعة بأفلامها التي ظهرت في أواخر العشرينات، هي نفسها " راوية ناظم" ابنـة نـاظم باشـا والشقيقة الصغرى والوحيدة لمحمد، و التي لم تكن قد أكملت الثامنة من عمرهـا عنـدما اختفى. لقد حققت هدى او راوية ناظم شهرتها الواسعة بين ممثلات تلك الحقبـة بفضـل جمالها الرزين و نظراتها الموحية... الحزينة و الغامضة في آن واحد، و التي كانت تأسر بها مشاهديها من عشاق السينما بمجرد أن يطل وجهها على الشاشة. ولم تستمر في العمل طويلا فقد اعتزلت عندما بدأ عصر الفيلم الناطق بعد ذلك بسنوات قليلة ، ولـم تلبـث أن هاجرت إلى فرنسا. ومازلت احتفظ بنسخة من مجلة "الكواكـب" الصـادرة عـام ١٩٣٢ يتصدر غلافها صورة ساحرة لسيدة ترتدي زياً بدوياً، هي نفسها "راويـة نـاظم"، و قـد انسدل البرقع المزين بالخرز ليغطى معظم أجزاء وجهها و يترك الفرصة مواتية لينطلـق كل سحر ممكن من عينيها الجميلتين بلا حدود. لقد استوقفتني تلك الصورة التـي تـزين غلاف المجلة وأنا أمر ببائع كتب قديمة، وطالعت وأنا أقلب صـفحاتها خبـر اعتزالهـا منشوراً بجانب بعض التفاصيل الأخرى عن حياتها الشخصية التي كانت تنشر لأول مرة. وأخيرا سمعت إنها قد تزوجت بباريس - بعد طول عزوف عن الزواج - من هندي مسلم من طائفة "الإسماعيلية " يقيم هناك.

وبالرغم من كل هذه الحقائق التي تجمعت لدى على مدار حقبة طويلة من الـزمن إلا إنها لم تكن كافية لأعرف حقيقة الأمر، وأميط اللثام عن ذلك السر الذي يحـيط بتلـك الحجرة الأخيرة ببدروم قصر ناظم باشا، تلك الحجرة التي يتحول من يقربها إلى خيـال. لقد ظل الغموض يكتنفها حتى بعد أن استجمعت كل ما املك من شجاعة ودلفت إليها ذات يوم ضارباً عرض الحائط بتحذير العجوز. لقد ألهب خيالي بقدر ما أخافني، وخلـق فـي نفسي رغبة مستعرة بأن أصل إليها مهما كلفني الأمـر كـأنني سـأطلع هنـاك أذا مـا وصلت... على سر الحياة .

ولكن عندما وصلت إلى هناك، لم أجد سوى بابها المغلق الذي صدني ووقف كسـد منيع أمامي يصعب تجاوزه. وبعد أن زالت الرهبة عني، أصبحت اداف إلـى البـدروم كلما ذهبت إلى القصر في صحبة أبى. فما أن ينشغل في عمله حتى اتجه مباشـرة إلـى هناك، لقد سقط الطريق المحرم بحرمانية الخوف وأصبح ألان مستباحاً. أمـر مسـرعا

أمام حجرة العجوز والتي يبدو إنها كانت طريحة الفراش لا تغادره و اسمع صوتها يتردد من خاف ظهري كصدى ماض بعيد محذرا أياي بذات التحذير وبنفس الكلمات دون زيادة أو نقصان " لا تذهب إلى ... وإلا تحولت مثل ..... إلى خيال " . أواصل طريقي إلـى الداخل دون حتى أن أستدير حتى أصل إلى هناك. أقف طويلا أمام بابها الضخم أتأمـل زخارفه النحاسية بشكلها المميز والتي مازالت منطبعة في مخيلتي إلى الآن وقـد كانـت تلمع بشدة في تحدٍ صارخ لعتمة المكان. وما تلبث التساؤلات أن تتدافع إلى رأسي حتـى تتزاحم ولا تكاد تستوعبها رأسي الصغيرة. لماذا هو آخر الأبواب؟ لماذا هو الأكبر مـن بين كل الأبواب؟ ؟ لماذا هو الموصد دون سائر الأبواب؟

أنهض على أطراف أصابعي قدر ما استطيع. تمتد يدي لتعبث بالمزلاج الضـخم الذي استقر في مكانة كنائم. أحاول أن أحركة، أن أوقظه من ثباته فلا اسـتطيع . أطـل ببصري من خلال الثقب الواسع إلى الداخل ولكن ما أكاد أضع عيني حتى تمتلـئ أنفـى برائحة حادة نافذة، و يهاجمني الظلام المتراكم بالداخل فيرتد إلي البصر و هـو حسـير. تمر أصابع يدي على الباب الضخم وانا أتحسسه برفق وتوسل بعد ان ينال منـى التعـب أستجديه أن يفتح، ولكن شيئا لم يحدث، لم يفتح الباب.. ولم أتحول كذلك إلى خيال !!!

وبالرغم من رغبتي الشديدة والتي أخذت تزداد إلحاحا يوماً بعد يوم لمعرفة ما قـد حدث خلف ذلك الباب المغلق على أسراره، إلا أنني لم أجرؤ أن أقـتحم عزلـة الرجـل الوحيد الذي يعرف الحقيقة، وقد أحاطها بسياج عال من الصمت المنيع. و تركته يغالـب البوح و يغالبه.. حتى غلبه البوح.

[٢]

عاد محمد ناظم من باريس في شهر مايو عام ١٩٠١ وهو يحمل معه آلة تصـوير "سينماتوغراف" ماركة "باتيه" بعد أن قضى هناك ثلاث سنوات كاملة في أعقـاب وفاة والدته التي كان متعلقا بها إلى حد كبير. لقد فضل والده إبعاده إلى هنـاك بعـد أن هاجمته تلك الخيالات المزعجة و لازمته طويلا بعد موتها المفاجئ، وجعلته يعتقـد فـي حينها أنه يراها تتجول في أروقة و حجرات السرايا !

عاد محمد رجلا كاملاً بعد أن ودعناه في آخر مراحل الصبا، عاد مرحـا مقـبلا على الحياة، عاد و هو يحمل معه حبا جديداً .. السينما توغراف.

و بعد أيام قليلة من وصوله رجع إلى الإسكندرية مرة أخرى، ثم عاد إلينا و معـه صندوق ضخم يضم بعض المعدات الأخرى التي قد أحضرها معه. و أشرف على نقلهـا بنفسه من هناك، ورفض بإصرار أن يظل هذا الصندوق في حديقـة السـرايا عرضـة للشمس، وأصر على إدخاله إلى بهو القصر حيث ظل في مكانه أسبوعا بأكمله حتى هيـأ له مكانا بإحدى الحجرات ببدروم القصر. قام بطلائها بلون قاتم،وسد جميع نوافذها عـدا شباك صغير أسدل عليه ستارة سوداء. كما قام باستبدال أرضيتها الخشبية ببلاط مصقول، ووضع خزانا صغيراً بخارجها ليضمن تزويدها بالماء بانتظام.

كنا نراقبه جميعاً و هو يعمل بحماس و صبر شديدين حتى انتهـى مـن عملـه. و عندما علمت مربيته بحقيقة ما يفعل عنفته بشدة و هي تصرخ في وجهه " ما لنـا نحـن والخياله.. مالنا نحن وعمل الشيطان " .

[٣]

ظللت أعتقد لفترة طويلة أن محمد قد تعرف على " السينما توغراف " لأول مـرة أثناء إقامته في باريس، ولكن ما أصابني بالدهشة ولم أجد له تفسيراً، أنني عثرت بـين أوراقه بعد اختفائه على هذا المقتطف من صحيفة "المؤيد" الصادرة يوم ٢٩ يناير ١٨٩٦. وفتح أبى الصندوق و أخرج جزءاً من صحيفة قديمة من داخل حافظة أوراق جلديـة، ودفع بها إلي لأقرأها. مررت عليها بعيني قافزاً ما بين سطورها التي امتدت إليهـا يـد الزمن لتطمس بعضاً منها.

و بعد أن فرغت من القراءة، مد أبى يده ليأخذ ذلك الجزء من الصـحيفة ليطويـه بعناية و يضعه بحافظة الأوراق و يعيدها إلى الصندوق مرة أخرى ثم استدار إلى بعد أن أغلقه.. " المدهش في الأمر انه حتى يوم قدومي للعمل بقصر ناظم باشا في مطلع عـام ١٨٩٧ - أي بعد عام كامل من صدور هذه الصحيفة - لم يكن محمد يسـتطيع أن يقـرأ شيئاً بالعربية ، فقد كان يجيد الفرنسية والتركية التي أتقنها عن أمه أما العربية فلـم يكـن يعرف عنها حرفاً واحداً !

" أجتمع لفيف من علية القوم و أبناء الأغنياء الأفاضل، و أفراد الطبقة المتعلمة المستنيرة في مكان عرضه ستة أمتار و طوله عشرون مترا ، وجلسوا على كراسي كما تحدث تماما في المسارح ليشاهدوا هذا الاختراع العجيب و الذي جاء من آخر الدنيا ، الذي يسمونه بالأعجميه "سنيماتوغراف" أو بالتعبير العربي الفصيح "خياله" .

و قد بدأت مشاهدة الاختراع العجيب في مغرب أمس بعد أن بدأ الظلام تخيم على المكان ، فرفعت جميع الكلوبات و صار المكان ظلاما دامساً ، و فجأة سمعنا صوت الالة يتحرك و تحدث طنيناً أشبه بصوت آلات "الطباعة وهي تتحرك ، ثم خرج من هذه الالة شعاع أبيض ترکز على قطعة قماش بيضاء كانت أمامنا ونحن جلوس وإذا بنا نرى أشخاص يتحركون أمامنا و يروحون ويجيئون . وقد شاهدنا منظراً لميدان الأوبرا بباريس ، وهو منظر صحيح لأننا سبق رأيناه رأي العين عندما زرنا هذه المدينة ، ثم انقطع الشعاع لفترة ، وعاد بعد ذلك و أذا بنا أمام خيال صاحب الفخامة رئيس جمهورية فرنسا و هو يسلم على مستقبليه عندما زار مدينة ليون بفرنسا ، وكذلك خيال صاحب الجلالة غليوم الثاني في زيارته لمصنع بمدينة برلين.

وتتابعت الخيالات أمامنا لبعض العمال في مصانعهم، وبعض الناس في روحاتهم وغدواتهم في بلادهم، والحق ان هذا الاختراع عجيب جداً ، ونحن ننظر له شهرة كبيرة في العالم ومن المؤكد أن هذه المعجزة التي لا يمكن ان يفكر فيها الا شيطان مارد ، تعد أعظم عجائب القرن التاسع عشر . .

[٤]

كان صيفاً حاراً.. مبهجاً، ذلك الصيف الذي وصل فيه محمد. لقد رجع ليعيد البهجة والحياة إلى القصـر الذي كسا الحزن أرجائه بعد وفاة "زينب هانم " التي ذهبت وهي في ريعـان الشباب دون أن يلم بها أي مـرض.

وبعد مرور نحو شهر من وصوله كان قد فرغ تماماً من تجهيز معمله، وبـدأ فـي تصوير بعض الشرائط السينماتوغرافية، وعندما شرع في تلـك المحاولـة أصـبح مـن المألوف رؤية العاملين بالسرايا وهم يهرعون - في منظر مضـحك - مـن أمـام آلـة التصوير بمجرد سماع طنينها بينما يقف هو بينهم يحاول جاهداً استمالتهم للوقوف أمامها ولكن بلا جدوى.

لقد فشل في إقناع أي منهم بذلك بعد أن تزعمت مربيته حملة عنيفة ضد هذه البدعة التي أتى بها من الغرب.. من بلاد لا دين لها. وحاولت قدر جهدها أن تصرفه عن الاهتمـام بها. إلا انه لم يعد يقابل انتقاداتها بصدر رحب كما كان يفعل، بل أصبح يضيق بحـديثها ويرى فيه تدخلاً في شؤونه، واخذ يشتبك معها في جدل عنيف بشأن هذا الأمر، وكثيرا ما احتد النقاش بينهما حتى ارتفعت أصواتهما إلى أقصى مدى لها.

ولكن ظل محمد كما عهدته دائما رقيقا مهذبا ، لم يكن يدع الغضب يسيطر عليه و يدفعه إلى تجاوز حدود اللياقة وأدب الحديث، وكثيرا ما حاول التودد إليها طالباً منهـا أن تسوق له سبباً واحداً مقنعاً يجعله يهجر من اجله شيئاً قد أحبه، ولكن العجوز لا تلبـث أن تكون أكثر مراوغة من عنادها فتجيبه باقتضاب وغموض وقد أخذتها رقته المفاجئـة .. " لا يجب أن نترك مجالاً لعمل الشيطان.."، وتكتفي بذلك ولا تجيب.

انفق جهداً كبيراً في محاولة إقناعها أن السينماتوغراف ليست سوى اختراع يمكنه الاحتفاظ بالصور والحركات ليعيد عرضها مرة أخرى .. انه " ليس سـوى مجـرد آلـة تنتمي لعصر جديد قد بدأ ". ولكن هذا التبرير لم يكن مقنعا لها و استمر الأمر بينهما على ما هو عليه من شد وجذب إلى أن فاجأته العجوز ذات مرة بعد إلحاح شديد منه برأيهـا الغريب الذي ظلت متمسكة به وتقف عنده بصلابة لا تبارحه..

.." الخيال هو القرين.. المثيل الذي واره ا بداخلنا.. شاهدا علينا ليوم الدين.. ولا يصح أن يظهر إلا بأمره يوم يكشف عنا الغطاء فيصبح البصر كالحديد"، وأضـافت " انك تغتصب حقاً ليس لغير ا .. انك تُظهر ما شاء سبحانه أن يبطن" وعندئذ تدخل هـو متسائلاً وهو يحاول أن ينال من حجتها، " لماذا تقفين أمام المرآة إذن.. ألا تتحولين إلـى

فهرس

خيال؟ السينماتوغراف لا شأن لها بأن تُظهر او تُبطن إنها ،.. كفاك.. وهل يستطيع أحداً إن أراد ؟ رددتها العجوز بغضب وأضافت .. "هو وحده الظاهر والباطن سبحانه" .

و بعد أن أفصحت العجوز بوضوح لأول مرة عن تصورها للأمر ، تـيقن محمـد تماماً انه لا سبيل إلى إقناعها او حتى تفهمها لما يفعله. عندئذ أصبح أكثر تسامحا عنـدما تندلع تلك المناقشة بينهما في أي وقت. بل كان في أحيان كثيرة يميل إلى مشاكسـتها إن هي تجاهلت الأمر. وأتذكر انه ذهب إليها مستسلما ذات يوم واخبرها أنه قد أصبح يميـل إلى الاعتقاد بصحة ما تقول، وأخذ يسايرها في حديثها حتى لم يعد يسـتطيع أن يتمالـك نفسه وانفجر ضاحكاً لينفضح أمره أمامها وغضبت منه العجوز بشدة في حينها. وعموما لم تكن طبيعته السمحة تدعه يتركها للغضب طويلاً، فسرعان ما يسترضيها وهو يعـرف سبيله إلى ذلك جيداً. لم يكن الأمر يكلفه سوى أن يعزف لها بعض الألحان التركية التـي تطرب لها وقد حفظها عن أمه منذ صغره. يجلس إلى البيانو ليستنطقه بالمقامات الشرقية، ربما بدا ذلك أمرا صعباً لأي شخص آخر، أما مع محمد ، فلم تكن الآلـة تملـك إلا أن تطاوعه.. كالساحر.

[٥]

كانت " راوية " شقيقته الصغيرة، هي الوحيدة التي استطاع ان يغريها بـالوقوف أمام آلة التصوير. واستطاع بذلك أن يجتذب شخصاً أخر إلى هوايته المفضلة إضافة إلى صديق طفولته " ثروت " الذي كان يكبره بعده أعوام و كـان الوحيـد الـذي لا يخشـى الوقوف أمام الآلة لتلتقط خياله وهو يتحرك. وهو ما كان يزيد من نفور العجوز منـه، وربما وجدت فيه سبباً آخر تبرر به عدم ارتياحها له غير كونه يهودياً.

كانت تعتقد بقوة وبلا أساس ايضاً انه من شجع محمد ودفعه إلى التعلق بتلك البدعة أثناء تواجدهما معاً بباريس. و سبق لها أن اعترضت على أن يكون برفقته عند سـفره إلى هناك، إلا إن الباشا لم يلتفت إلى اعتراضها . فقد كان والد ثـروت مـن أصـدقائه المقربين، وكانت تجمعهما ايضاً مصالح تجارية مشتركة. والحقيقة أن الباشا لم يكن من النوع الذي يشغل نفسه بمسألة العقائد. فقد كان في حقيقة الأمر مجدفاً كبيـراً.. منكـراً للأديان ويجد متعه كبيرة في السخرية من تعاليمها جميعاً، وهو الأمر الذي تـرك لـدي بعض التحفظات على شخصيته وقتذاك.

استغرق الأمر من العجوز وقتا طويلا حتى تدرك انه ليست هناك قوة تستطيع أن تصرف ربيبها عن السينماتوغراف. لقد استأثرت تلك الآلة بكل حبه واهتمامه إلى الحد الذي هجر معـه ولعه السابق بالموسيقى. وفيما عدا بعض المرات القليلة التي رأيته يعزف لبعض الوقت ترضية لها، أو ينقل لراوية بعض المهارات الخاصة بالعزف، لقلت انه قـد اسـتبدل حبـه للموسـيقى بالسينماتوغراف وهو الذي اشتهر منذ صغره ببراعته في العزف التي لم يكن يطاوله فيها احـد حتى بعض من محترفي الموسيقى من الأجانب الذين كانوا يعيشون بمصر. وصـرت أعجـب كيف أصبح من كان يجلس إلى البيانو بالساعات لا يكاد يقربه، بينما راح يجلس إلـي سـاعات طوال يشرح لي بلا ملل كيف يعمل هذا الاختراع وكيف يسجل الصور وما الذي يجعلنا نتـوهم انه يتحرك. ويوضح لي ما يفعله بتلك الحجرة المظلمة حتى يظهر الخيال على الشريط،. وكثيرا ما أعاد علي قصة لقائه بصاحب هذا الاختراع أثناء وجوده بباريس. وعندما رأيت مدى الجهـد والعناء الذي بذله وهو يحاول أن يصور شريطاً لراوية - لم يستغرق عرضه سوى دقـائق - وهي تجلس الى البيانو تعزف، تيقنت أن اهتمامه بهذا الاختراع ليس مجرد اهتماماً عابراً ، بل سوف يترك أثرا عميقاً لا يمحى في حياته... وقد كان.

[٦]

عندما شرع في تصوير هذا الشريط، بدا واضحاً انه يواجه مشكله ما، لم تصادفه من قبل أثناء تصوير الشرائط السابقة والتي كان يدور معظمها أما بحديقـة القصـر او بعض الحقول المجاورة.

لقد ظل ليومين كاملين، ينتقل بالآلة من موقع لآخر داخل البهو، ويواصل النقـاش مع ثروت الذي اعتاد أن يعهد إليه ببعض المهام أثناء التصوير حتى توصل بنهاية اليـوم الثاني إلى الحل الذي كان يبحث عنه.

وفي صباح اليوم الثالث استيقظ مبكرا قبل شروق الشمس وأيقظ معه كل العـاملين بالسرايا، وبدا نشيطاً للغاية وهو يعد موقع التصوير. قام بدفع البيانو من مكانـه بوسـط البهو وجعله مواجهاً لباب الشرفة الكبير. واحضر كل مرآة أمكنه انتزاعها من حجـرات القصر حتى المرآة الضخمة التي تقع بالمدخل، ووضعها جميعاً في أماكن مختارة بالشرفة الدائرية التي تحيط بالبهو. وعاد مرة أخرى إلى الداخل ليجلس " زاوية " بوضـع معين إلى البيانو ويصبغ شفتيها بلون غامق يميل إلى الحمرة. وأخذ يشرح للصغيرة مـا يجب عليها أن تفعله عندما تدور الكاميرا.

وقف جميع العاملين بالقصر يراقبون الموقف في صمت وقد دفعهم الفضول للبقـاء بعد أن انتهت مهمتهم في تحريك الأثاث. اخرج محمد ساعته وظل ينظر إليها مترقبـاً، وما هي إلا لحظات حتى فوجئنا بعدة أشعة ضوئية مبهرة وهي تقتحم المكان قادمة مـن باب الشرفة وجميع نوافذ البهو، بعد أن سقطت أشعة الشمس بالخارج على المرايا لينعكس الضوء بقوة إلى الداخل من كل اتجاه ويتجمع حول زاوية التي غرقت في بقعة من الضوء الناعم لم نر لها مثيلاً من قبل. وبدأت الصغيرة العزف في نشوة ومهارة فائقة، مـأخوذة تماماً بما يحدث لها. كانت في قمة السعادة وهي ترى نفسها مركزا للأضواء والأبصـار ولم تغادر مقعدها أمام البيانو إلا بعد أن أعادت عزف المقطوعة عدة مرات كمـا طلـب أخوها، ولم تتوقف إلا عندما أمرها بذلك وتوجه إليها ليقبلها.

وقفنا جميعاً مبهورين بما يدور أمامنا من أمر نشهده لأول مرة، وكانت مربيته هي الوحيدة التي لم تتجاوب مع روعة المشهد، وقد وقفت تشير إلى زاوية أكثر من مرة لكي لتغادر موقعها أمام الآلة، وعندما لم تستجب الصغيرة، غادرت المكان في يأس وهي تتمتم ببعض آيات القرآن.

وبعد ذلك عاد محمد إلى الحديقة هو وآلته مرة أخرى، واستمر في مطـاردة أي شيء يتحرك محاولا تصويره . وظلت الأمور تمضي على ما يرام حتى وقع في الحـب لأول مرة.. ولكنة للأسف أحب حباً مستحيلاً.

[٧]

كانت " مريم " سيدة متزوجة تكبره في العمر بسبعة أعوام على اقل تقـدير. لـم تكن باهرة الحسن كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، بل كانت شديدة النحافـة، يغلـف وجهها شحوب دائم لا يفارقه. كذلك كانت مقلة في الحديث بدرجـة ملحوظـة و نـادرة الظهور في المجتمعات و لم يعرف عنها من شيء سوى ولعها الشديد بالموسيقى. وساهم هذا التحفظ الذي يغلب على طبيعتها، فضلا على إقامتها مع زوجها شديد الثـراء والـذي يكبرها بثلاثة عقود في قصرهما المنعزل والذي يقع على مشارف الصـحراء بـأطراف القاهرة في إضفاء مسحة من الغموض على شخصيتها.

لقد وقع في إسارها منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها، وقد أغمضت عينيها وهي تنصت إلى الموسيقى خلال واحدة من تلك المناسبات الاجتماعية العديدة التـي حـرص الباشا أن يصطحبه إليها بعد عودته بغرض تقديمه إلى المجتمعات خاصـة بعـد أن بـدأ يخطط في الحصول له على وظيفة بالسراي تليق به.

ولم يكترث كثيراً عندما أخبرة ثروت أنها متزوجة، بل راح يحاول جاهـداً أن يجتـذب انتباهها، ولكن دون جدوى مما أثار دهشة ثروت فهو لم يعهد في صديقة تصرفات مـن هذا النوع حتى أثناء تواجدهما معاً بباريس .

وظل طوال الحفل يختلس النظر إليها حتى واتته الفرصة للاقتراب منها عندما جاء احد الخدم يستدعيه للذهاب إلى إحدى قريباته لأمه وكانت سيدة مسـنة ولا تسـتطيع إن تغادر مقعدها. وعندما توجه إلى هناك وأصبح اشد ما يكون قرباً منها سمعها وهي تبـدي استياءها من أسلوب العازف الذي كان يقدم مقطوعة لـ "شوبان ".

وما أن انتهى العزف.. حتى ترددت نفس المقطوعة مرة أخرى، وعنـدما التفـت الحضور دهشة لهذا التكرار، كان محمد هو من يحتل مكانه أمام البيانو. جلس ليعزف لها " شوبان" كما لم تسمعه من قبل.. كما لم يسمعه أحدا من قبل.

ويبدو أنه قد أصاب هدفه تماماً فما أن انتهى من العزف حتى تقدمت مريم تجاهـه بلا تحفظ قبل أن ينهض من مكانة وهي تصفق بشدة، ولم تنتبه من فرط حماسها إلـى أنها قد تجاوزت المكان المخصص للسيدات.

ومما علمته من ثروت فيما بعد من تفاصيل حول هذا اللقاء، تيقنت أن الأمر قـد تجاوز حدود الإعجاب.. لقد وقـع محمـد فـي غرامهـا بالفعـل.. لقـد حـدثها عـن السينماتوغراف !

[٨]

بعد مرور بضعة أسابيع من هذا اللقاء قام بدعوة العديد من الأصدقاء وبعض أفراد الأسر الراقية لمشاهدة ذلك الاختراع الذي جلبة معه من الخارج. وبالطبع حرص على أن تكون "مريم"على رأس قائمة المدعوين، وكان له ما أراد حيث كانت هي وزوجها من بين الحضور.

استعد محمد استعداداً خاصاً لتلك المناسبة، وظل طـوال الأسـبوع يجهـز مكـان العرض. قام بنقل أدواته إلى البهو الكبير،واحضر قطعة قماش بيضاء كبيرة ثبتها علـى إطار خشبي يرتكز إلى الأرض حتى بدت كالحائط وقد قسمت البهو الى نصـفين، وفـي صباح ذلك اليوم قام بصف المقاعد أمام قطعة القماش، ووضع خلفهـا منضـدة كبيـرة استقرت عليها الآلة والشرائط.

وبمجرد أن انطفأ النور بعد أن اتخذ الحضور أماكنهم، حتى ارتفع صوت الموسيقى عالياً. لقد جلست " راوية " الى البيانو لتعزف أحدى المقطوعات التي قام شقيقها بتأليفهـا خصيصا لتصاحب هذا العرض. وظل يعمل معها لعدة أيام حتى أتقنتها تماماً.

استمر العزف لفترة وقد غرق المكان في ظلام دامس و خيم عليه الصمت، وفجـأة ظهر الشعاع الأبيض مصحوباً بصوت الآلة الرتيب و هو يخترق الظلام و يبـدده عـن طريقه حتى يسقط على قطعة القماش، ثم توالت الخيالات في الظهور.

كان أول ما ظهر مجموعة من المناظر المتنوعة التي تضم بعض المعالم الباريسية البارزة كان قد التقطها أثناء تواجده هناك قبل أن يحضر إلى مصر. و يظهر ثروت فـي أغلب هذه الشرائط. و كان أكثر ما لفت نظر الضيوف في هذه الشرائط،ذلك المنظر الذي يضم عدداً كبيراً من العربات البخارية تسير بحركة سريعة في احـد شـوارع بـاريس الواسعة.

كما استحسن الحضور ايضاً الشريط الذي تظهر فيه راوية وهى تجلس إلى البيانو تعزف إحدى المقطوعات والذي سبق وان صوره داخل بهو القصر. وكان اشد ما أثـار إعجابهم هو إن الصغيرة استطاعت بدقة شديدة أن تنتهي عزفها في نفس اللحظـة التـي انتهى فيها الشريط.. لقد بدا الأمر معه كأن الموسيقى تخرج من الصورة ثم انقطع الشعاع للحظات وعاد مرة أخرى لتظهر لوحة كتب عليها بالفرنسية بخط يد منمق

le jardin interdit de mon père

ثم ظهر منظر للباشا وهو يعمل في حديقته الخاصة والتي يرعاها بنفسـه ولا يـدع الفرصة لأحد أيا كان أن يقترب منها.. ولم يملك الباشـا إلا أن يبتسـم عنـدما ظهـرت صورته بالرغم من انه قد حذر ابنه من قبل من أن يصوره بتلك الآلة، إلا انـه تجاهـل تحذيره وصورة خلسة دون أن يلحظ ذلك.

أشاع هذا العرض السرور في نفوس الحاضرين، الذين بدت عليهم مظاهر البهجـة والسعادة وهم يشاهدون هذا الاختراع لأول مرة. لقد كانت أمسية طيبة للغاية، مضت في هدوء إلى أن جاء الشريط الأخير.. والذي يظهر فيه محمد نفسه.

[٩]

لم يكن هذا الشريط يتكون من مجموعة مناظر مختلفة كتلك التي سـبق عرضـها، وإنما كان أشبه بالروايات التمثيلية التي توجد الآن. يظهر محمد في المنظر الأول وهـو يسير ببطء في حديقة القصر مستغرقاً في تفكير عميق وقد علت وجهة علامات الشـرود. ثم تلا ذلك منظراً آخر يقترب فيه وهو - لم يزل تحت تأثير نفس الحالة- ليجلس علـى حائط منخفض يلتف حول حوض الزهور الخاص بناظم باشا والذي يعرف بين العـاملين بالقصر باسم "الحديقة المحرمة " من فرط حرص الباشا عليه.

أخذ يتأمل الزهور البيضاء اليافعة التي تجاورت بكثافة في منظر بديع و هي تتمايل مع نسمات الهواء، ثم نهض من مكانة يداعبها بيده ويقطف ثلاث زهرات منها اختارهـا بعناية. وما كاد يفعل ذلك حتى ظهرت بوادر الانزعاج على ملامح الباشا الذي كان يجلس بجواري وظل يراقب بقية الشريط في توجس..

أمسك محمد بالزهرات الثلاث في يده ثم عاد للتجول في طرقـات الحديقـة مـرة أخرى.وتتابع المناظر بعد ذلك لتعطى انطباعاً كأنه يدور في متاهة لا يهتدي إلى طريـق الخروج منها او أنه يبحث عن شيء بعينه ولا يجد له أثرا ثم تأتى بعد ذلك أكثر لحظات الموسيقى رقة وروعة مع صورة كبيرة جداً يحتل فيها وجهه كل مساحة قطعة القمـاش وقد توقف عن السير ورفع رأسه لأعلى ينظر إلى السماء كأنما يسر إليها بأمر ما. وفجأة تتهلل أساريره بعد تلك المناجاة الصامتة وينطلق في خفه وهو يدور حول نفسه في سعادة بخطوة راقصة صارمة الإيقاع. ثم يلي ذلك منظراً بعيدا جدا تبدو فيه صورته في حجـم صغير للغاية وهو يقبل مسرعاً تجاهنا من نهاية سور الحديقة الخلفي، وتتزايـد سـرعة الموسيقى بينما يكبر حجم خياله تدريجياً كلما تقدم نحونا. ظل يتقدم حتى خلنا أنه علـى وشك أن يصطدم بنا، إلا أنه لم يتوقف و أستمر في تقدمه حتى فوجئنا بقطعة القماش التي تظهر عليها المناظر وهى تتمزق بشدة ليتجاوزها الخيال و يخرج منها مندفعا بقوة كأنها تمثل عائقا في طريقه يمنعه من أن يلج عالمنا. لقد ظهر أمامنا كأنه قد استحال إلى إنسان ينبض بالحياة و هو يقف على بعد خطوات منا، ممسكاً بزهراته الثلاثة البيضاء.

ساد الفزع بين الحضور إلى الحد الذي ترك معه بعضهم مقعده و هرب و فوجئنـا بالخيال يتقدم بثبات وهدوء إلى حيث تجلس "مريم " وهو يمد يده إليهـا بـالزهور و قـد أحاطت به هالة من الضوء الأبيض سقطت عليه بعد أن انتهى الشريط.

ربما ما كانت هي الوحيدة التي لم يفاجئها ما حدث. لم تترك مقعدها، و لم تستغرب الأمر كأن العوالم قد تشابهت لديها و أصبح الخيال و الحقيقة سواء. لقـد كانـت هادئـة

مبتسمة عندما امتدت يدها لتناول الزهور من يده.

مر بنا كل ما حدث في لحظات كحلم.. و لكنه لم يكن كذلك، فليس من المعقول أننا جميعا نشاهد نفس الحلم.. في نفس الوقت، لقد كان ما نراه حقيقة لا خيال !

[١٠]

كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها ناظم باشا و قد سيطر عليه الغضب إلى هذه الدرجة، لقد ثار ثورة عارمة و راح يعنف ابنه بقسوة على ما حدث في تلك السـهرة. لقد أوقع الباشا في حرج شديد لا يعرف السبيل إلى دفعه بعد أن اعتبر الضيوف ما حدث وعلى رأسهم أسرة مريم ينطوي على إهانة شديدة تتنـافى و ابسـط قواعـد اللياقـة و الاحترام الواجبة على المضيف قبل ضيوفه.

وظلت أحداث تلك الليلة حديث المجتمعات لفترة طويلة، تروى ممزوجة بالدهشـة والتعجب، ولم يخلو الأمر بالطبع من بعض الأقاويل التي تطول مريم و تلقى بالشبهات حول تلك العلاقة التي جمعتها به.

و لم تقف أحداث ما فعله تلك الليلة عند تلك الحدود فقط، بل تسبب أيضا فـي أن فقدت أربعة سيدات على الأقل وعيهن و قد كن من بين الحضور عندما رأين الخيال و قد استحال إلى حقيقة. وكانت على رأسهن مربيته التركية و التي لم تفق من ذهولها إلا بعـد يومين كاملين. و ظل يداخلها الشك حتى بعد أن أطلعها على حقيقة ما فعل حتى تهدأ بالا واخبرها انه هو من قام بتدبير كل ما حدث عن قصد. فعندما بدا الخيال يتحـرك تجـاه الحاضرين، ترك هو مكانه خلف الآلة في هدوء دون أن يلحظ احد من الجلـوس الـذين استغرقتم المشاهدة تماما خلع سترته حتى يظهر بالقميص الأبيض الـذي كـان يرتديـه بالشريط وامسك بثلاث زهرات بيضاء في يده لتتطابق هيئته تماما مع خيالة بالشريط وفي لحظة معينة عرف هو تقديرها من الموسيقى التي وضعها بنفسـه لتصـاحب العـرض، وعندما يقترب الخيال إلى أقصى درجة ويصبح كأنة على وشك أن يصطدم بنا اندفع هـو من خلف قطعة القماش ليخترقها بجسمه فبدا الأمر معه و كأن الخيال قد غـادر مكانـه و استحال إلى حقيقة.

ولكن يبدو أن هذا الإيضاح لم يكن مقنعا لها تماما، و ظلت على ما هي عليه لفترة. تمد يدها لتلمسه عندما يتقدم ليتحدث معها !

و بعد تلك الأمسية بعدة أيام، اختفت مريم تماما من القاهرة. و أشيع أنها ذهبت إلى منزل العائلة القائم بناحية " المطرية " للاستشفاء من مرض مفاجئ قد ألم بها .

[١١]

ما أعقب تلك الواقعة من أيام كان جحيماً حقيقياً للعاشق الصغير، والذي عاد إلى الموسيقى مرة أخرى يدفن فيها كل همومه و أشجانه.... و حبه أيضا، ساعات طوال يقضيها أمام البيانو منهمكاً في العزف كانت تدفعني إلى التساؤل من أين له كل هذه النغمات؟

مئات من رسائل من نغم شفافة، غامضة، مغلقة برموز لم يكن بمقدورنا أن نفضها و لكننا - على الأقل - كنا نعلم إلى من توجه.

ظل على ذلك الحال قرابة شهرين، اعتزل خلالهما الناس تماماً و لم يغادر القصر خلالها سوى مرة واحدة، إلا أنها كانت كافية لأن يرتكب خلالها حماقة أخرى.

لقد حمل آلة التصوير و توجه إلى "المطرية" حيث تقيم مريم، و أستطاع أن يلتقط منظراً لها وهى تسير في حديقة المنزل هناك. و يبدو أن الأسوار حالت دون الاقتراب منها، فلم تظهر صورتها سوى من الخلف و هي تمضى عن بعد إلى الأمام في ممر ضيق تظلله الأشجار. و تستمر في تقدمها حتى تتحول إلى مجرد نقطة صغيرة متحركة ثم تتلاشى صورتها تماما.

علمت بأمر هذا الشريط مصادفة عندما توجهت ذات يوم للاطمئنان عليه في تلك الحجرة بالبدروم اثر انقطاعه عنا لفترة طويلة. وعندما اقتربت من الباب سمعت صوت الآلة و هي تعمل، و لم ينتبه إلي و قد دلفت إلى الحجرة حيث كان مستغرقاً تماماً في مشاهدة ذلك الشريط. وبمجرد أن وقعت عيناي على هذا المشهد حتى خبرت سر انقطاعه عنا بالأيام في خلوته لا يفعل شيئاً سوى تكرار مشاهدة هذا الشريط مرات ومرات. حاولت أن أنتزعه منه و لكنه توسل إلى بشدة أن أتركه حتى نال منى، تركته له وقد كرهت أن أراه و هو يستجديني بتلك الصورة كأنني سأنتزع منه روحه. ووعدته ألا أبوح لأحد بذلك السر على الإطلاق على ألا يكرر فعلته هذه مرة أخرى. لقد كنت أخشى أن يصيبه أي سوء من جراء تلك العلاقة، لأن ما سبق وأن فعله أمام الجميع لا يسمح بأي تجاوز آخر مهما بلغ من الصغر، خاصة و أن أسرة زوجها تنتمي إلى أحد عائلات الصعيد العريقة، حيث يعني أي أمر يتعلق بمسألة الشرف الشيء الكثير.

و لكن يبدو أنني أخطأت فما كان ينبغي أن أترك له الشريط، هذا الشريط بالذات.

حاولت معه قدر جهدي أن أخرجه من تلك الحالة التي هو عليها،، فاستجاب لأيـام قليلة، ثم عاد مرة أخرى إلى خلوته يجتر أحزانه.... وخياله الأثير. وبالرغم من حالتـه التي راحت تزداد سوءا مع الأيام إلا أنه ظل متماسكا حتى دهمنا ذلك الخبر المشـؤوم... لقد ماتت مريم !

[١٢]

في الأيام الأخيرة، و قبل اختفائه المفاجئ، عاد لينكب على البيانو مرة أخرى. لقـد ازداد شحوبا و نحولا، و ازدادت موسيقاه كذلك حدة و غرابة لم نألفها من قبل. صرخات لا نغمات، تأتى من أعماق سحيقة داخل نفس مضطربة لا قرار لها.

وأصبحت تلك الموسيقى من الثقل إلى الدرجة التي باتت تضغط معها على مشاعرنا بقسوة شديدة حتى تصيبنا بالعجز التام. فما ان يبدأ العزف حتى يصيبنا الجمـود و يخـيم علينا الصمت و نتوقف تماماً عن فعل أي شيء وكأنه يأمرنا بذلك !

و لأول مرة أجده يهتم بتدوين ما يعزف، و هو الذي لم يفعل ذلك من قبل، إحـدى عشره مقطوعة كاملة للبيانو، أحصيتها و احتفظت بها.

وبعد أن اختفى بعـدة سـنوات قمـت بعـرض تلـك المـدونات علـى الأسـتاذ "جيوفانى بورجيزى" و هو موسيقى ايطالي كان يقود بعض الفرق الأجنبية بالإسكندرية، و أشتهر بتعليم الموسيقى لأبناء الطبقة الراقية. وأذكر أنه كان يعمل في تلك الفترة مدرسـاً لـ " بهيجة حافظ " كريمة إسماعيل محمد حافظ باشا الموظف بالخاصة السلطانية و التي اشتهرت بعد ذلك كممثلة عندما كبرت.

لقد كانت المرة الأولى التي أسمع فيها الموسيقى توصف بأنها Pure على حد تعبيره، وألح على أن أترك له تلك المدونات ليقدمها مع فرقته، و لكنى رفضت ذلك بشدة.

عشر مقطوعات من أروع ما كتب من مؤلفات للبيانو على الإطلاق كمال أقر بذلك "بورجيزى"، أما عن المقطوعة الحادية عشر والتي كانت آخر ما انتهى من تدوينه قبـل اختفائه، فلا أجد رغبة في نفسي أن اطلع أحدا عما وصفها به، و أفضل ان أحتفظ لنفسي بما قاله "بورجيزى" عنها.

لم تمر بضع ساعات بعد أن انتهى من تدوين تلك المقطوعة، و توجه كعادته إلـى حجرته المعتمة بالبدروم، لينزوي داخلها بالأيام و قد انقطع تماما عن العالم، لا يفعل شيئا سوى إعادة ذلك الشريط الذي صوره لمريم المرة تلو الأخرى إلا وقد فوجئنـا بصـراخ مربيته وهى تقبل في هلع من داخل البدروم، و لم تنطق بغير جملة واحدة قبل أن تسـقط مغشيا عليها.. " لقد ذهب محمد.....لقد تحول إلى خيال !

وعندما توجهنا إلى حجرته بالبدروم لنستطلع الأمر... لم نجده هناك، كذلك لم نعثر عليه في أي من حجرات القصر وظللنا لعدة أيام ننقب في كل شبر من حولنا و لكننا لـم نجد له أثرا.

وبدأت رحلة طويلة للبحث عنه..

فهرس

بعد ثلاثة شهور من اختفائه، بدأ اليأس يتسلل إلى نفوسنا و يتضاءل الأمل في العثور عليه. لم نترك مكانا قريباً أو بعيداً إلا وقد بحثنا فيه، حتى إن الباشا كلف "ثروت" بالسفر إلى فرنسا للبحث عنه هناك. ولكن للأسف، لم تسفر جهودنا تلك عن أية نتيجة في الوقت الذي ظلت العجوز فيه على اعتقادها الذي لم يتغير، تصر على أنها رأت محمد و هو يذهب بعد أن تحول إلى خيال.

يذهب إلى أين؟ لا ندرى!

وماذا تقصد بأنه تحول إلى خيال؟ لا أحد يعرف !

لم تكن تستطرد في الحديث أو تنطق بغير تلك العبارة الغامضة قبل ان تهاجمها تلك النوبات العنيفة من الجنون و التي تحول بيننا و أن نفهم حقيقة الأمر.

و بالرغم من أن ناظم باشا ظل متماسكاً لفترة طويلة، إلا أنه أصبح صامتاً لا يتكلم يستغرقه التفكير تماما حتى ُيخيل ألينا أنه غادر عالمنا. وكنا نلتمس له العذر و نحن نستشعر ما يعتمل بداخله، فليس من اليسير عليه أن يتقبل تلك الفكرة التي باتت واضحة لنا جميعا، و هي أنه ربما يكون قد فقد ابنه الوحيد إلى الأبد.

ورويدا رويدا أستطاع الحزن أن ينال منه ، و أصبحت تأخذني به الشفقة و أنا أشعر بجسده يرتجف كلما سمع تلك العبارة المشؤومة التي لا تكف العجوز عن ترديدها و كأنها آخر ما قد تبقى لديها من كلمات.

وبالرغم من ذلك رفض بإصرار أن يستجيب لما نصحه به البعض بإيداعها " السرايا الصفراء " إكراما لها، او ربما خشية إن يفقد الشاهد الوحيد الذي ربما يعرف إلى أي مكان قد ذهب ابنه إذا ما كان للذهاب معنى آخر غير الموت . واكتفى بنقلها إلى إحدى الحجرات التي تقع في مقدمة البدروم، وخصص لها احد الخدم لرعايتها ولم يكن يمر يوم واحد حتى يذهب للاطمئنان عليها بنفسه .

وبعد خمسة شهور... كنا قد فقدنا الأمل تماما في العثور عليه، وخيم الحزن بظلاله الكئيبة على كل جوانب القصر. وامتدت سحابته القاتمة فأحاطت وطالت كل شيء.. الأنفس والجدران.

كان اليوم الذي قررت فيه أن اترك العمل بالقصر وهو نفس اليوم الذي اصـطحبني فيه ناظم باشا إلى احد المتصوفة الذي اتخذ خلوته بمقام " بن الفارض " القـائم بناحيـة "الاباجية " تحت سفح المقطم .

لقد فوجئت به في احد الأيام وهو يطلب منى أن ارافقه إلى هناك. بدا لـي الطلـب غريباً للغاية و بخاصة انه يصدر من شخص مثل ناظم باشا، إلا أنني لـم املـك إلا أن استجيب له.

وعندما وصلنا إلى هناك ودلفنا إلى المسجد الذي خيم عليه الصمت وعتمة المسـاء، لـم نجد أحدا.. لقد كان خاوياً على عروشه. تقدم ناظم باشا وتبعته إلى الداخل حتـى وجـدنا أمامنا رجلاً يجلس وحيدا وقد اتخذ لنفسه مكانا قصياً، قبع فيه راسخاً كأن لم يبرحه منـذ الأزل.

ظل الرجل يتابعنا ونحن نتقدم تجاهه من فوق منصته التي ترتفع قليلاً عن الأرض إلى أن أمسك ناظم باشا يدي برفق يمنعني من التقدم أكثر من هذا و قد اقتربنا من ذلك الجزء المرتفع، و لم أفهم حينها أنها إشارة بعدم جواز الاقتراب أكثر من ذلك. وقفنا فـي مكاننا لبرهة حتى أذن لنا الرجل بإشارة من يده.

و فوجئت بناظم باشا و هو يتقدم في خشوع ثم يخر على الأرض راكعاً محاولا أن يكون في جلسته أقرب ما يكون إلى الرجل البعيد، الغارق في الظلمة ولا تكاد ملامحه أن تُميز كأنما يجب ألا تدركه الأبصار. و بمجرد أن استقر جسده على الأرض حتى بـادر بإلقاء سؤاله الذي أذهلني و جعلني أشفق عليه مثلما لم أفعل من قبل و قد أدركت بوضوح إلى أي طريق مسدود كان يتجه عقل الرجل بعد أن فشل في العثور على ابنـه، ارتفـع صوته متردداً يكسوه الرجاء..

- مولانا.. هل يمكن للإنسان أن يتحول إلى خيال .. إلى ضوء ؟

طال سكوت الرجل كأنه لن يجيب، ثم رد بصوت هادئ خلت نبرته من أي دهشـة لغرابة السؤال ..

- " يمكن للإنسان أن يستحيل إلى كل شيء .. و لكن بشروط ، ومـا الضـوء إلا قبس من نور ا .. و ا يهدى نوره من يشاء ".

- و ما تلك الشروط يا مولانا...؟

- ليس لك أن تسأل... و ليس علمها بالسؤال إذا ما سألت... ذلك فضل ا يؤتيـه من يشاء و ا ذو الفضل العظيم ..

وارتفع صوت ناظم باشا مرة أخرى مستفسرا في لهفه..

- و إذا.. ما حدث ... و تحول الإنسان إلى خيال ... هل من عود يا مولانا ؟

- العود دوماً يا ولدى لا أحد سواه ... إنا و إنا إليه راجعون بأية وسـيلة.. على أية صورة .. على أية هيئة ..

وسكت الرجل غير راغب أن يزيد...

وارتفع صوت ناظم باشا متوسلا و قد أدرك أن الرجل على وشك أن ينهي اللقـاء و يصرفنا من حضرته ..

- ولكن يا مولانا.... أين يذهب...

لم يمهله الرجل ليكمل سؤاله و أجابه "... لا تنشغل بالجسد..... فلا قيمة له "...

ولم يزد بعد ذلك حرفاً واحداً ...

[١٥]

لم أعد إلى القصر بعد ذلك سوى مرة واحدة بعد ثلاث سـنوات تقريبـاً. ذهبـت لأعود ناظم باشا وقد سمعت انه طريح الفراش منذ فترة طويلة بعد أن اشتد علية المرض وانزوى في قصره ـ بعد أن اعتزل الناس ـ لا يبارحه .

وعندما دخلت علية حجرته، هالني أن أجد الرجل الذي لم يكن يكبرني إلا بـأعوام قليلة وقد أقعده المرض تماماً، لم يتعرف على فلم يكن يعي ما يدور من حوله، وكانـت عيناه تشخصان في ثبات متحجر إلى أعلى وكأنما هناك شيء ثقيل يضغط علـى روحـه ويجذبها إلى عالم بعيد.. لم يكتمل اليوم الثالث لزيارتي له إلا وكان قد انتقل إليه .

وقبل أن أغادر القصر دهمني هاجس غامض لم استطع الإفلات من ضغط إلحاحه، بأن أتوجه لألقى نظرة على حجرة محمد بيدروم القصر...

وعندما وصلت إلى بداية الردهة وجدت مربيته وهى تقف تصلى بحجرتها وقد انعم ا عليها بالسكينة والهدوء، وقفت ببابها قليلا أتأملها وسعدت أنها في تلك الحالة الطيبـة التي بدت عليها.

نهضت ببطء بعد أن ختمت صلاتها ولم تبد أي اهتمام بوجـودي وقـد رأتنـي، و اتجهت مباشرة إلى فراشها. تجاوزت حجرتها متجها إلى الـداخل، ولكـن مـا هـي إلا خطوات قليلة حتى تبدل هذا الشعور الطاغي الذي يحركني ويدفعني إلى أن أذهـب إلـى هناك. قررت التراجع ومغادرة المكان وعندما مررت أمام حجرة العجوز مرة أخـرى و أنا أسرع إلى الخارج، خلت أنني قد سمعت صوتا قادما من حجرتها، و عندما اسـتدرت وجدتها تنظر إلى و تخاطبني ..

.."أما زلت تبحث عنه ؟ استرده من النور مرة أخرى إن استطعت"...

وقفت جامدا للحظات أفكر بما قالت، و قد راعتني نبرة الوعي التـي دبـت فـي صوتها. لقد بدت لي في حالة عقلية مكتملة وتدرك تماماً ما تقول، و دفعني هذا إلـى أن أتقدم إلى داخل حجرتها محاولا أن استغل تلك اللحظة النادرة ربما استطعت أن أعـرف حقيقة ما حدث ..

[١٦]

.. في الأيام الأخيرة .. بعد أن اعتكف محمد في حجرته بالبدروم عقب علمه بوفاة "مريم "، و أصبح ينقطع عنا بالأيام لا نراه. دفعني القلق و الرغبة في الاطمئنـان علـى أحواله أن أذهب إليه. كانت تلك هي المرة الأولى التي أستجمع فيها شجاعتي و أقدم على ذلك ، و قد كنت تعلم مدى خوفي من أن اذهب إلى هناك. وعندما اقتربـت مـن البـاب سمعت صوت الآلة يطن بالداخل، وبعد فترة انتظار لم يستجب فيها إلى طرقاتي تغلبت على خوفي و فتحت الباب . و ما كدت أطل برأسي إلى الداخل حتى فوجئت بخيال "مريم " يتحرك أمامي.. كانت هي، اقسم لك .. تظهر من الخاف و هي تتقدم إلى الأمام بـبطء عبر طريق طويل تحوطه الأشجار، بدا ممتد بلا نهاية.

وعندما هممت بأن أعود أدراجي و قد تملكني الفزع، لمحت محمد و هو يقف خاف الآلة بعد أن ألفت عيناي الظلام. ثم وجدته يترك مكانه و يتقدم إلى الأمام و هو ينظر إلى "مريم" مأخوذا كأن هناك من يناديه و لا يملك إلا أن يلبى . ناديته كي أنبهه إلى وجـودي إلا أنه لم يسمعني، و ظل يتقدم حتى مر من أمام الشعاع الذي يخـرج مـن الآلـة، و فوجئت به و قد استحال جسده أمام عيني إلى جسد أثيري من نور أبيض ناصع لا مثيـل لضيائه، ثم استمر في طريقه و هو على تلك الحالة النورانية حتى وصـل إلـى قطعـة القماش التي تظهر عليها الخيالات. ثم أبصرته يخطو بثبات إلى هنـاك .. إلـى الجهـة الأخرى التي توجد بها مريم كأنه قد جمعه بها مكان واحد.

و كان آخر ما رأيته قبل أن ينقطع الشعاع هو صورة محمد و قد تحول إلى خيـال يسير إلى جوار "مريم " عبر الممر الضيق حتى تلاشيا معاً.

وفجأة انقطع الشعاع و لم أجد أثرا له في الحجرة التي ملئها الضـوء الأبـيض ، أخذتني الدهشة و أنكرت على عيني ما رأت. تقدمت إلى الداخل لأفحص قطعة القمـاش البيضاء بحثا عن الثغرة التي ربما يكون قد نفذ منها كما سبق و أن فعل. إلا أنني عنـدما مددت يدي لأتحسسها... لم أجد سوى الحائط!

وبعد لحظات، انقطع الضوء الأبيض ليغرق المكان في ظلام ثقيل، اف كل شـيء وكأن النور لن يأتي مرة أخرى .. إلى الدنيا.